أرضٌ محروقة

□ يسري الأمير

ليست غزّة التي تحترق هي «الأرضَ المحروقة،» بل الفكر الذي يسيطر على الأرض بفعل التصاقه ببُنى السلطة المنشغلة بأسئلة البقاء المجّانيّ.

ليست غزّة الأرضَ المحروقةَ. فبيوتُ صفيحها، التي اشتعلتْ مع الطائرات المهوِّمة في سماءٍ ضيّقة، ستُزْهر من جديد، وستنتقل الحكاياتُ الجديدةُ ممّن بقي حيّاً: من الأطفال المتروكين حول أمّهاتهنّ القتيلات، من رعب صوت الطائرات والصواريخ التي حُفرتْ في ذاكرة المولودين. والأبناء، الذين ضلّ الموتُ طريقَه إليهم، سيخْبرون أبناءهم في ما بعد عن صَدْرِ الأب الذي حاول أن يكون ملجأً من الصواريخ، وعن ترانيم الأمّ المهدهِدة لينامو متغلّبين على زعيق النفّاثات التي حقّقتِ الـ «إنجازات» العسكريّة المزعومة.

ليست غزّة مَنْ يحتاج إلينا: فغزّة تقاتل عن نفسها، وتعلّمنا أنّ حكايات المدن التي أَحرقتْ نفسَها وأبتِ الخضوعَ لم تكن أساطيرَ وهميّةً، وأنّ المشاهدَ السينمائيّة أقلُّ من الواقع، وأنّ الحياةَ تبادلُ أدوارٍ مع الموت.

لغزّةَ موتُها؛ ولنا، نحن الملايين المنتشرةَ من المحيط إلى الخليج، موتُنا الخاصّ. موتُ غزّة سيَجْلب الحياةَ؛ وموتُنا قَتَلَ غزّةَ، وجنينَ، والقدسَ، وعكّا، وحيفا، ويافا، وبغدادَ، وبيروتَ، والخرطومَ، والصومالَ، وقبلها تونس، وطرابلس الغرب، وصنعاء، وعمّان. موتُ غزّة يطهِّر؛ وموتُنا مُعْدٍ متقيِّح.

موتُ غزّة أطفالٌ أشلاء، وشهداء أحياء يتْلون الشهادةَ آخرَ قولٍ قبل الانكفاء، وحكاياتُ بطولةٍ مليئةٌ بالرعب والخوف، وشعورٌ عارمٌ بالوحدة القاتلة وانسدادِ الأفق حول المدد الآتي. أما موتُنا فترفٌ ورفاهيةٌ مصطنعة، وتمسّكٌ بقيمٍ لا نفقهها، وانبطاحٌ لامتناهٍ، وتفاؤليّةٌ عجيبةٌ تشْبه النبتةَ البلاستيكيّةَ في أرضٍ خصبة.

موتُ غزّة واحدٌ، قتلٌ جماعيٌّ من الإنسان الأبيض لفقراء الأرض الأكثر إزعاجًا برفضهم الموتَ، قتلٌ مكلفٌ يرفع من قيمة الإنسان: لكلّ طفلٍ صاروخٌ ثمنُه عشراتُ آلاف الدولارات، لكلّ امرأةٍ تكتيكٌ تكنولوجيٌّ كلّف الملايينَ، لكلّ مقاتلٍ تحرُّكٌ كتيبة. أما موتُنا فمتعدّدُ الوجوه، يجْمعه إبقاؤنا أحياء لتناول وجبةٍ دسمةٍ عند الماكدونالدز، نُتْبعه بكوبِ قهوةٍ لا يشْبه قهوتَنا، وحبّذا لو كان من الستاربكس، حيث نجلس كما نتخيّل الإنسانَ الأبيضَ يجلس، ندخّن خلسةً، ونتناقش في عناوين موتنا كأسباب الحياة والفعل: الحكّام، التخلّف، الذرائعيّة، الانتصار المكنون.

الحكّام

«واسحبْ ظلالكَ عن بلاطِ الحاكمِ العربيّ/حتّى لا يعلّقَها وساما» (محمود درويش)

كم مرّةً سنجرِّب الـ «حكّامَ» العرب؟ كم مرّةً سننظر إليهم على أنّهم الأملُ والمرتجى؟ وإلامَ نبقى نجْمع الدلائلَ والبراهينَ على أنّهم شركاءُ في المجزرة؟ ومن أين أتت كلمةُ «حكّام» في الأساس؟ مَنْ يحْكم منهم؟ ومَن يحْكمون؟

حاكمُ مصر لم يَفتحْ معبرَ رفح، فقامت القيامةُ ضدّه. لكنه كان قد أغلق المعبَر منذ سنتيْن وارتضى أن «يتعاونَ» مع الإسرائيليين، فلماذا صَمَتْنا وقتَها؟ الرجل، على ما ذكرت الصحفُ، أحضر الشركاتِ الهندسيّةَ الأميركيّة لتبحثَ عن أنفاق الحياة التي حفرها أبناءُ غزّة. من الصعب أن تُقْنع طفلاً بأنّ غزّة محاصرةٌ من دولة واحدة وهي (أيْ غزّة) على حدود دولتين. لكنْ هل يقْدر حاكمُ مصر على أن يتّخذ قرارَ فتح المعبر؟ أفاجأنا بشيء؟ أكان عاقلٌ يتصوّر أنّ حسني مبارك سيوقظ التمرّدَ في أبي الهول، وسيَخْبط على الطاولة بيده الغليظة ويقول: «لا أقْبل القتلَ في غزّة! لا أقبل الجوعَ! سأفتح أرضي ملاذًا لمن يريد الهربَ بأطفاله خوفًا عليهم!»؟ ماذا انتظرنا، حقيقةً، منه؟ أسيكون أكثرَ رأفةً بالغزّاويين منه بشعبه الذي حوّله إلى واحدٍ من أفقر شعوب العالم، يشْحذ رغيفَ الخبز في الأرض التي علّمتِ العالمَ

هل «التخلّف» أن يثور أهل غزّة على قتلهم بالمفرّق بسبب الحصار ويؤثروا المقاومة؟!

الزراعةَ، ويستعطي نقطةَ الماء وهو بجانب النيل، فيما مشاريعُ المياه تذهب إلى ملاعب الغولف التي تفرّخ في بلاد الظامئين؟

أين الحكّامُ العرب؟ سؤالٌ طرحتْه الأمّهاتُ الثكالى، سؤالُ العاجزين المحاصرين، فردّدناه نحن الذين نعتبر أنفسَنا خارج الحصار. أين الحكّام العرب؟ غريبٌ السؤالُ! أفهمُه من امرأةٍ لم تَعُدْ لديها حيلةٌ لحماية ابنها المرعوب من هدير الطائرات، لكنّه قمّةُ العبث عندما نطرحه نحن. لقد شمّر أثرياؤهم عن ساعد الجدّ، وانهمكوا في أعمالٍ خيريّة. والملكُ السعوديّ ـ الذي قَدّم، بشحطةِ قلم، مليارات الدولارات تعويضًا من تفجيرات الحادي عشر من أيلول ـ قاد حملةَ تبرّعاتٍ لأهل غزّة في المملكة، دون أن ينسى أن يُفلت علينا «علماءَه» على الشاشات يَعِظوننا بتفوّق الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس... وبأشواط. لكنّ العلماء أنفسَهم كانوا قد داروا في السابق على الراغبين في الجهاد، بيتًا بيتًا، فأقنعوهم بأولويّة الجهاد بالنفس، ثمّ أرسلوهم أكوامًا إلى.. أفغانستان؛ فلربّما الطريقُ أقصرُ إلى هناك مع رحلات السي. آيْ. إيْ.

وكانت فكرةُ الحملة الشعبيّة لامتصاص هول المناظر مبتكرةً وإبداعيّةً إلى درجة أن تبنّاها أميرُ البحرين (الذي ضاقت به الإمارةُ فنَصَّبَ نفسَه ملكًا، في حين بقيتْ زوجتُه أميرة)، فقاد حملةً مثلَها في بلاده. وبالحسّ نفسِه قاد شيوخُ الإمارات الميمونون حملاتٍ في زواريب «مولاتهم» التي يفْخرون بها.

أين الحكّام العرب؟ إنهم متطوّعون الآن في الهلال الأحمر لضيق ذات اليد: فلا نفطٌ عندهم، ولا أموالٌ، ولا جيوشٌ وأسلحةٌ بمئات مليارات الدولارات تهترئ في الصحراء لقلّة الاستعمال. الحكّامُ العرب لا يملكون إلاّ الحسَّ الـ «إنسانيَّ» المرهفَ الذي دَفَعَ بالملك الهاشميّ إلى التبرّع بدمه الملكيّ، أبًا عن جَدّ، لغزّة. فكفى عويلاً وبحثًا عنهم! تلك هي أطولُ لعبة اختباءٍ في تاريخ الشعوب. لكنّ الغريب هو بديهيّةُ السؤال: فاستعمالُ «أل» التعريف قبل النطق بـ «حكّام» يدلّ على البديهيّة في منطق الناس. الحاكم حاكم، لا نعْرف لماذا وكيف، يَعْمل حاكمًا، ويموت حاكمًا، وينْجب حكّامًا، أبناؤه هم الوحيدون المهيّؤون ليكونوا حكّامًا، وأما الناس ـ رجالاً ونساءً ـ فعقيمون وعقيمات لا ينفعون. ليس سهلاً أن تكون الحاكمَ والقائدَ والملهمَ والمفدّى والحكيمَ والرياضيَّ الأولَ وراعيَ العلوم والمواطنَ الأول وزوجَ السيّدة الأولى... وبعد كلّ هذه المهامّ لا غضاضةَ إنْ لم يسمعِ الحاكمُ استغاثاتٍ وأنينًا.

الحكّامُ موتُنا الأول، ليس في وجودهم على العروش وفي القصور، بل في قبولنا هذا الوجودَ والاستكانةِ إليه. وبعد كلّ مصيبةٍ نفاجَأ بموقفهم، فيزداد الفكرُ تبلّدًا. لم يستفدْ كثيرون من رؤية ديكتاتور بغدادَ الرهيب يسقط ولا يدافع عن حكمه، يُقتل ابناهُ ثمّ يرتضي أن يمسكَ به في جحْرٍ جرذٍ دون مقاومة، فيُعلَّق على المشنقة بيد الغزاة وهو ما زال يحْلم بدوْرٍ في خدمتهم كي يعود حاكمًا من جديد. لم نقدّرْ مدى هشاشتهم، ومدى حصدهم ما زرعوه من بديهيّاتِ وجودهم في وعي الناس.

أين الحكّامُ العرب؟ إنهم يمارسون البكاءَ أمام كوندوليسّا رايس، ويكشّرون عن أنيابهم أمام المتظاهرين في الطرق، ونحن ما زلنا نتوهّمهم حكّامًا.

أيّتها السيّدة التي تحتضن طفلَها القتيلَ وتسأل «أين هُمْ؟» إنّهم يبحثون عنكِ ليُرْشدوا الطائراتِ إلى كوخِكِ التنكيّ، الذي يقضّ بصموده أُسسَ قصورهم.

التخلّف

«هذه أيائُنا فاقرأ/باسم الفدائيّ الذي خَلَقا/من جزمةٍ أُفُقا» (محمود درويش)

«التخلّف» ظاهرتُنا الجديدة، ووصفُتنا للخلاص من همّ الموقف والفعل. نحن نعاني التخلّفَ، ونحن غيرُ قادرين على القيام بشيء إزاء التقدّم المذهل الذي نراه عند الرجل الأبيض، وعلينا أن ننتهي من «تخلّفنا» بتقليده. فإذا ما نلنا شرفَ التقليد، ومَدَحَتْنا صحيفةُ بلديّةٍ مغمورةٍ في بلاد الرجل الأبيض، طاش صوابُنا فرحًا وسرورًا، وحَمَلْنا المقالَ شهادةً نعتزّ بها أكثرَ من اعتزازنا بشهادة الدكتوراه الفخريّة التي نلناها إثر تبرّعٍ سخيٍّ قدّمناه إلى جامعةٍ ثريّة، أو اشتريناها من فقيرٍ مصريّ رَمَتْ به الأقدارُ في طريقنا فأنجزَ بحثَنا.

عندما تنهمك في قراءة تعليقات القرّاء العرب على مقالات الصحف والمواقع الإلكترونيّة، تذهلك شدّةُ الحساسيّة التي نبديها من فكرة التخلّف. فثمة مقالاتٌ وتعليقاتٌ كثيرة تصف تصرّفاتٍ معيّنةً بـ «التخلّف،» ولذلك لم تجد غضاضةً في وصم رمي الحذاء على رأس الرئيس الأميركيّ بالتخلّف، بل كالت المديحَ لديمقراطيّة المحتلّ التي سمحتْ للصحافيّ العراقيّ برمي مداسه، وانتقدتْ مَنْ أثلجَ الحذاءُ صدرَه.

لكننا بالطبع لم نعدْ إلى مفهوم التخلّف، ولم نَشْرحْ معناه. صار عكسَ التخلّف كياسةُ في التعاطي، ورطانةٌ بكلماتٍ أجنبيّة، وفنجانُ قهوة عند ستاربكس. ولم يَربط هؤلاء المحلّلون التخلّفَ بالأميّة المتعمَّدة لتأبيد سيطرة الحاكم، ولا باهتراء مراكز التعليم التي تُنتج حاملي شهاداتٍ عاطلين عن العمل، ولا بانهيار البنى الاقتصاديّة المدروس، ولا بنمط الإنتاج الريعيّ والاستهلاكيّ. ليست خسارةُ مئات المليارات من الدولارات في البورصات المتضخّمة دليلاً على التخلّف، وليس تخلّفًا انعدامُ فرص العمل والمشاريع الصغيرة للطبقة الوسطى، ولا الفسادُ المستشري بين مكاتبنا الوزارية لتسيير أمور تحالف التجّار والضبّاط وأمراء السلطة! كلّ ذلك ليس تخلّفًا، ولا يقتضي التوقّف عنده! أمّا أن يثورَ أهلُ غزّة على قتلهم بالمفرّق بسبب الحصار، ويؤْثروا المقاومةَ والموتَ الجماعيَّ على ترك رقابهم في أيدي الجلاّدين، فهو رمزٌ لتخلّفنا. أمّا أن نقارعَ الرجلَ الغربيّ، ونخطفَ جنودَه لنحرِّرَ أسرانا، فمغامرةٌ متخلّفة. أمّا أن ندعو إلى تكاملٍ عربيّ، فلغةٌ خشبيّة متخلّفة. أمّا أن نقول إنّ حاكمَ مصر شريكٌ في حصار الغزّاويين، فافتئاتٌ وتجنٍّ وتخلّفٌ فكريّ بالطبع. كما أنّ المقاومين «متخلّفون» لأنّهم لم يبكوا أمام الكاميرات، ولم يَقبّلوا ممثّلةَ الرجل الأبيض السمراء، ولم يَقْبلوا ما قُدِّم لهم من فتات الحياة بل طالبوا بحقّهم الكامل فيها. وإنْ رَفَضْنا أن نبقى لاجئين وفقراء وضعفاء بحاجة إلى عطف الرجل الأبيض، وإنْ لم نحبَّ الحياةَ على الطريقة الأميركيّة أو الأوروبيّة، وإنْ قاومْنا بلحمنا وبأجساد أطفالنا، فسنكون متخلّفين نستحقّ أن تَرْجمَنا صحفُ المحبّة البتروليّة ومشتقّاتها بشتّى النعوت.

الخوف من أن نُرمى بالتخلّف، جرّاءَ فكرةٍ رَسَمْناها عن الرجل الأبيض المتطوّر، يتغلغل في رؤوسنا. فإنْ حَمِيَتْ رؤوسُنا لمرأى تقطيع أجساد أطفالنا في غزّة عالجناها بالمزيد من القهوة، وبالتفرنج المضحك، وبالهدوء المصطنع، وحمدنا الله لأنّنا لسنا خشبيّين متخلّفين.

الذرائعيّة

«هم يَسْرقون الآن جلدَك/فاحذرْ ملامحَهمْ وغمْدَك/كم كنتَ وحدكَ يا ابنَ أمّي/يا ابنَ أكثر من أبٍ/كم كنتَ وحدك!» (محمود درويش)

الذرائعيّة وصفةٌ بعضنا لرؤية العالم وفهمه وتحليله، وقد بَزّنا المرحوم ديكارت في الميكانيكيّة الفكريّة التي نرى بها العالم. والذرائعيّة تجعلنا مواطنين سعداء، ومحلّلين مفوّهين أمام شاشات التلفزيون وفي عواميد الصحف. هكذا يقول بعضُنا إنّ إسرائيل هاجمتْ غزّة لأنّ حماس افتَرَتْ عليها بالصواريخ. غريبةٌ هوايةُ حماس: كلّما وجد اثنان من أعضائها وقتَ فراغ وشعرا بالملل، أطلقا صاروخًا على البلدات والمستعمَرات الـ «إسرائيليّة»، فضاق صدرُ إسرائيل بتهديد شعبها الآمن، وضاق وعيُ حماس بقوّة إسرائيل، فكان لا بدّ من أن تندلع النارُ بينهما! كذا تقرأ وتسمع. أما بالنسبة إلى مئات المدنيين الذين ذُبحوا، فالأمرُ بسيطٌ وواضح: لمّا كان المقاومون الفلسطينيون يُطْلقون النارَ من بين البيوت، فقد جاء الردّ الإسرائيلي على البيوت!

لم يُجْهد الإسرائيليون، كما جهد الكثيرُ من الكتّاب العرب، في تبرير هجوم دولتهم على قطاع من أفقر المناطق في العالم، وأكثرها كثافةً سكّانيّة. كذلك لم يُسْرفوا في تقديم تبريراتٍ للقتل من قبيل استخدام تعابير: «الصواريخ العبثيّة،» و«كلفة المقاومة،» و«العجز عن مواجهة القوّة الإسرائيليّة،» و«موازين القوة.» بالطبع هذه الذرائعيّة لا تقدّم ذريعةً مقْنعةً لسبب إطلاق الصواريخ المقاومة، ولا لتصنيعها في الأساس. ولم يَرْبط الإسرائيليون بين إمكان تصنيع الصواريخ وتقلّص العمليّات الاستشهاديّة، بعد أن صار بالإمكان استخدامُ مقذوفاتٍ تحمل الانفجارَ عوضًا عن استخدام الإنسان كصاروخ. وفي عام ٢٠٠٦ صُلبت المقاومةُ اللبنانيّةُ بالذرائعيّة عينها، وتساءل البعض: أمنْ أجل حفنةٍ من المعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيليّة يُخطف جنديّان وتقع الحربُ؟ لم يسألْ أحدٌ من هؤلاء الذرائعيين يومها عن سبب خوض **إسرائيل** الحربَ من أجل جنديين، ولا عن مقتل ١٦٠ إسرائيليّاً، جلُّهم من الجنود، لتحرير جنديين، ربّما لأنّنا نؤْمن في قرارة نفوسنا بأننا ـ نحن «المتخلّفين» ـ لا نعطي قيمةً لأسْرانا، الأحياءِ والأموات؛ بل إنّنا بالنسبة إلى

أيّهما أقسى وقعًا عليكِ أيتها الأمّ الغزّاويّة: الصواريخُ التي قتلت ابنَكِ الشهيد، أم القولُ إنّه يخدم مشروعًا نوويًا إيرانيًا؟!

الذرائعيين، مدّعي المنطق، نعيش على دماء قتلانا، هوايتُنا أن يُقتل أطفالُنا وتُدمَّر بيوتُنا، ولا سؤالَ عمّن يقتل أطفالَنا أو يدمِّر البيوت.

بهذه الذريعة تُحمَّل حركةُ حماس مسؤوليّةَ الهَوَس الإسرائيليّ بالألعاب الإلكترونيّة الحقيقيّة فوق رؤوسنا. وبهذه الحجّة تُحمَّل فصائلُ المقاومة مسؤوليّةَ انعدام الضمير العالميّ إزاء مشاهدِ قتلنا في الطرقات، وإهانة أجساد موتانا التي لم تستطعْ أن تقارعَ الـ ف ١٦ وصواريخَها. وبهذا تمتقع الوجوهُ وهي ترى المجزرةَ ضدّ شعبٍ يَصْنع صواريخَه من مواسير المياه، فيما تتكدّس أسلحةٌ اشتريناها بمئات مليارات الدولارات.

نلوم الفلسطينيَّ لتمرّده على القوة الصلفة وهو لا يَمْلك ما يحمي أهلَه، ولا نذْكر سببَ وجود الطائرات بجانب الإبل في حظائرنا. نلوم المقاتلَ الذي يُقتل أهلُه، ونحارب تهريبَ الأسلحة إليه، ثمّ يتشدّق بعضُ الكتّاب ومحرّري نشرات التلفزيون بتعداد موازين القوى. يا لَموازين القوى! ماذا لو انهمك النبيُّ محمّد في دراسة موازين القوى؟ أكان سيقارعُ أعظمَ إمبراطوريتيْن يومها ببضع قبائل؟

والذرائعيّة نفسُها تجعل من حماس ذراعًا إيرانيّة. ربّما، مَن يعرف؟ لكنْ، كيف تصل إيرانُ إلى غزّة، وكيف تَقْفز فوق النفوذ المصريّ، لو كان هذا النفوذُ يؤدّي واجباته؟ لا جواب! يقف رجلُ الدين المهيبُ في لبنان، ويحمِّل إسرائيلَ وإيرانَ مسؤوليّةَ المذبحة في غزّة، ويَطْلب المغفرةَ من مصر والسعوديّة. غير المفهوم هنا يصير بديهيّاً يكرّره الناسُ في الطرق بعدما أترعتْهم به التلفزيوناتُ والجرائد. أما كيف، ولماذا، فهذان سؤالان من رجْس الشيطان. ويكتب مثقّفٌ عراقيّ شامتًا لأنّ الجيش الإسرائيليّ سيسحق حماس ـ هكذا! وكأنّنا ملزمون بأن ننسى ارتباطَ هذا الجيش بجذور العصابات الإرهابيّة التي يتحدّر منها. وثمة آخرون يلومون حزبَ الله لأنّه لم يُطْلق الصواريخ، ويتّهمونه بالعمالة والجبن؛ ولكنهم كانوا سيقيمون الدنيا عليه، وبالحجج والذرائع نفسها، لو أَطلقَ مفرقعةً واحدة. ويتشدّق آخر بأنّ حماس جرّت الويلاتِ على غزّة لأنّهم أُمِروا بذلك (من قِبل إيران)، وكأنّ حماس هطلتْ من السماء، أو كأنّ أعضاءها من المرّيخ لا من أبناء غزّة.

أيّهما أقسى وقعًا عليكِ أيّتها الأمُّ الغزّاويةُ التي تَدفن أبناءها: الصواريخُ التي قتلتْهم، أم القولُ إنّ ابنَكِ الشهيدَ يخْدم مشروعًا نوويّاً إيرانيّاً يَبعد آلافَ الكيلومترات، وإغفالُ أيّ ذكرٍ لاحتلالٍ وحصارٍ ومخيّماتٍ بؤسٍ مكتظّةٍ يريدونك أن تموتي فيها لاجئةً إلى الأبد حتّى لا تُكذّبي موازينَ القوى المقدّسة؟

الانتصار المكنون

«يا سيّد الكينونة المتحوّلة/يا سيّدَ الجمرة/يا سيّد الشعلة/ما أوسعَ الثورة/ما أضيقَ الرحلة/ما أكبَر الفكرة/ما أصغرَ الدولة!» (محمود درويش)

تتغيّر الصورة في شرقنا منذ فترة. فلم يعد مستقبلُنا هو ما يُكتب في دهاليز وزارات خارجيّة الرجل الأبيض، بل صارت أزقّةُ مارون الراس ومخيّماتُ الفقراء

في غزّة هي التي تخطّ بصمود رجالها ونسائها مسوَّداتِ المستقبل الآتي. تتغيّر الدنيا: فنرى الجيشَ الإسرائيليّ يتخلّى عن رحلات الكشّافة التأديبيّة لاحتلال المدن وتدمير الجيوش، وينعكف إلى قرى لبنان القريبة محاولاً إخضاعَها من دون نتيجة؛ ثم يستدير إلى الضفة وغزّة، أيْ ما كان يعتبره جزءًا من أرضه، ليقتلَ الناسَ من دون أن يستطيعَ كسرَ إرادة المواجهة لديهم. ولئن كنّا نقف مع المتسفسائلين بأنّ الزمن الإسرائيليّ بدأ الانحدارَ المحتومَ بنيوياً، إلا أنّ نبرةَ الانتصار المفرقِعة، التي يُظْهرها عددٌ كبيرٌ من الكتّاب والمعلّقين، لا توحي بالكثير من الطمأنينة.

صمودُنا أسطوريّ؟ صحيح. الجيش الإسرائيليّ فَقَدَ هالتَه؟ صحيح. التحامُ المقاومة بالناس وانبثاقُها منهم بعد تجارب جيوش الأنظمة الفاشلة؟ صحيح، وأكثر من صحيح. لكنّ الحديثَ عن انتصار، والتبشيرَ به، فقط لأنّنا استطعنا تقديمَ آلاف الشهداء من دون أن نتراجع؟ هنا لا بدّ من الوقوف قليلاً.

الادّعاء بالنصر المظفّر الآن فيه الكثيرُ من البداهة المسطّحة. وهذا لا يقلّل من قيمة صمود مقاتلينا وشعبنا، ولا من أهميّة الإنجازات العسكريّة التي تُبْطل الكثيرَ من عوامل تفوّق الجيش الإسرائيليّ وتَدْفع بقادته إلى طلب أهلينا في بيوتهم تعويضًا من إخفاقهم في النيل من مقاتلينا. لقد حطّمت المقاومةُ الفلسطينيّةُ واللبنانيّةُ أسطورةً زُرعتْ في أذهان آبائنا، وأورثوها إيّانا، وهي أنّ الوقوفَ في وجه القوة العسكريّة الإسرائيليّة غيرُ ممكن، وكأنّ أحدًا من الحكّام العرب منذ عقود حاول ذلك بصدقٍ وتصميمٍ ووعيٍ وحداثة. الإسرائيليون غنموا في حروبهم مع جيوشنا فكرةَ الرعب منهم، واستفادوا من فساد الأنظمة، وتردُّدِها بين إرادة المقاومة وإغراءِ المفاوضات. ثم بدأ العملُ الفلسطينيُّ المقاوم، فكانت بذرةُ الإرادة في كسر احتكار القوّة. وتلتْه المقاومةُ اللبنانيّةُ التي أظهرتْ لكلّ المراهنين على العجز أنّ القوّة تفْرض واقعَها، وأنّ الإسرائيليّ يمكن أن يتراجعَ عندما نُظهر الإرادةَ ونُعدّ العدّةَ ونستعدّ لدفع ثمن بناء مستقبلنا. أمّا الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى، ثمّ الثانية التي وأدتْها الفوضى في العمل المسلّح وأزاحت عنها الكثيرَ من الفعل الشعبيّ المباشر، فقد نقلتا المعركةَ إلى أرضٍ حرامٍ بالنسبة إلى الإسرائيليين الذين باتوا مجْبرين على التنازل عن بعضِ ما كانوا يعتبرونه من المحرّمات.

وها غزّة الآن تكتب فصلاً جديدًا من فصول انهيار لامنطق القوّة العسكريّة القابع فوق رقاب الملايين من البشر. وهكذا نرى الجيشَ «الذي لا يُقهر» يَعتبر المجزرةَ بسلاح الطيران إنجازًا نوعيّاً، ويَعتبر تدميرَ البيوت فوق رؤوس أصحابها تطوّرًا في بنية العمل العسكريّ. وأما جنودُه فمذعورون على أبواب المدن والمخيّمات، لا يبارحون دبّاباتِهم، ويشكون من أنّ المُحاصَرين يحاولون بإصرارٍ أن يخطفوهم. ويتذكّر الجنودُ الإسرائيليون حكاياتِ آبائهم عن مئات الجنود العرب الرافعين أعلامًا بيضاءَ، والمستسلمين بمجرّد سماعهم صريرَ جنازير الدبّابات الإسرائيليّة. ويتساءل الجنودُ الإسرائيليون: أين ذلك العربيُّ، بلفاحه الأبيض المرفوع فوق اليدين المرفوعتين، في أرضٍ محاصرةٍ من كلّ الاتّجاهات؟ بل ربّما باتوا يشكّكون في روايات آبائهم.

إنّ ذلك كلّه ـ إحباطَ الفعل الإسرائيليّ، ومن خلفه الرجل الأبيض، عن التفرّد بصناعة مستقبلنا ـ لَهُوَ بداياتُ النصر. لكنّه ما زال في دائرة ردّ الفعل. فنحن ما زلنا نخطّط للدفاع عن أنفسنا، ولردع العدوان، ولمنعه من تحقيق أهدافه؛ وهذا تطوّرٌ هائلٌ في بنية وعينا. لكنّ الانتصار يتطلّب القيامَ بالفعل، والتخطيطَ للخطوات اللازمة، وتقديمَ برنامج عملٍ للناس كي تشاركَ في صنع مستقبلها.

لقد حرّرت المقاومةُ لبنانَ من الاحتلال الإسرائيليّ لمعظم أراضيها، لكنّها عجزتْ عن تقديم خطابٍ جامعٍ يَستثمر إنجازَ التحرير، وهذا ما مكّن الكثيرين من محاصرتها ومضايقتها. إنّما يبقى السؤال: ماذا بعد التحرير؟ ما البرنامج السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ؟ ما النظامُ الذي سيسود؟ كذلك الأمرُ في فلسطين: هناك تقوم المقاومةُ على عدّة فصائل، معظمُها الآن دينيّ، فما هو برنامجُها؟ وما هي خطّتُها؟ وكيف يشارك الناسُ فيها ويسعوْن إلى تنفيذها وتطويرها؟ لو قدّمنا تصوّرًا افتراضيّاً بأنّ حماس سيطرتْ على الضفّة وغزّة وفَرضت اعترافَ العالم بدولةٍ فلسطينيّة، فالسؤال هو عن اليوم التالي. النموذج الذي فرضتْه حماس على المستوى الاجتماعيّ في غزّة ليس مشجّعًا، فهل هذا هو ما سيسود؟ ماذا نفعل بالفلسطينيين غير المسلمين؟ وبغير الحمساويين؟ ما خطّة حماس الاجتماعيّة التربويّة الاقتصاديّة؟

أتبدو الأسئلة السابقة باهتةً تحت وقع المجزرة؟ ليس هذا هو المقصود؛ ففي هذه اللحظات بوركتْ قدمُ كلّ مقاتلٍ في أرض غزّة. لكنّ السؤال أقدمُ من هذين الأسبوعين، وأقدمُ من إنجاز حرب تمّوز ٢٠٠٦. السؤال عن ربط التحرير بالتحرّر، عن الحداثة المطلوبة لنفض تخلّف بنية المجتمع العربي بمؤسّساته الحكوميّة والقضائيّة والاقتصاديّة والتربويّة. الحداثة الأهمّ التي أظهرتْها قوةُ المقاومة حتّى الآن اقتصرتْ على الأداء العسكريّ (أو ما يخدمه ويدور في فلكه إعلاميّاً وتربويّاً وتعبويّاً وخدماتٍ اجتماعيّة)، وقد أرسى نظريّتَها حزبُ الله، ونقلها إلى المقاومة الفلسطينيّة: فمِنْ وسائلَ بدائيّةٍ وقلّةِ موارد السلاح، استطاع الفكرُ الحداثويّ العسكريّ أن يبتدعَ طرائقَ واستراتيجيّاتٍ إبداعيّة تقلّل من الهوّة التسليحيّة بين هذه القوى والتفوّق التسلّحيّ الإسرائيليّ. غير أنّ هذا الإبداع الحداثويّ لم ينتقلْ إلى بنى المقاومة الأخرى، على صعيد الخطاب السياسيّ والبرنامج الاجتماعيّ غيرِ الموجّه إلى تعزيز العسكرة والتعبئة. فأين برنامج حزب الله، أو حماس، أو الجهاد، المُعلن في أدبيّاته لا ممارساته غير مقاومة الاحتلال وتحرير الأرض؟

غيابُ هذه الرؤية يبقي هذه القوى في معرض ردّ الفعل. وهي تقوم بهذه المهمّة على أكمل وجه، مصحوبةً بتأييد طيفٍ كبيرٍ من شارعها المحلّي والشارع العربيّ، نتيجةً لسنواتٍ طويلةٍ من القهر والذلّ والعربدة الإسرائيليّة وغيابِ النظام العربيّ عن

يثورون لمذبحة غزّة اليوم، كما ثاروا لجنين وبيروت، ثم يعودون وأيديهم خالية الوفاض من هدفٍ جامعٍ محدّد.

دائرة الفعل (غير التنكيل بالشعوب). من هنا يصير الحديثُ البديهيُّ عند الكثير من الكتّاب والمعلّقين عن الانتصار المكنون ضربًا من الصورة القاتمة التي تُحْبط الناسَ في كلّ الوطن العربيّ عن الحراك خارج الحدود الزمنيّة للمجزرة. فحصارُ غزّة لم يبدأ اليوم، ومأساةُ فلسطين عمرُها أكثرُ من ستّين عامًا، وتواطؤ الأنظمة جزءٌ من بنيتها، والقهرُ والظلمُ وقمعُ الناس في الطرق كانت دأبَها وديدنَها ووسيلتَها للبقاء. وغيابُ الخطاب السياسيّ والبرنامج الجامع يبقي الفقراء والمقهورين تحت طائلة ردّ الفعل لا أكثر: يثورون لمذبحة غزّة اليوم، كما ثاروا لجنين وبيروت، وربّما غدًا سيثورون لمذبحةٍ جديدة، ومن ثمّ يعودون إلى قهرهم اليوميّ، ولسانُ حالهم يكفر بالرؤساء، وأيديهم خاليةُ الوفاض من هدفٍ جامعٍ محدّد.

هل يمكن تحريرُ الأرض، وهؤلاء القابضون على أعناقنا ما زالوا في عروشهم نائمين؟ هل يمكن جمعُ الناس في برنامج ذي نفسٍ طائفيّ محدّد؟ هل تمْكن دعوةُ الناس إلى تأسيس نظام قمعيّ جديد يستبدلون به نظامًا قمعيّاً متواطئًا مع الاحتلال؟ مادامت هذه الأسئلة بلا جواب ممّن يجترحون المعجزاتِ في مقاومتهم، فإنّنا ما زلنا بعيدين عن التبشير بالنصر. جلُّ ما عندنا أنّ معدنَ الناس الصحيح يَظْهر في مقاوماتٍ أسطوريّة، وفي حكاياتِ بطولةٍ تَفْخر الشعوبُ بروايتها.

ملاحظة ختاميّة

بلغ عددُ شهداء غزّة المعلن، حتّى وقت كتابة هذا المقال، أكثرَ من ١١٠٠ شهيد، من دون معرفة عدد جميع مَنْ بقي تحت الأنقاض. وفي هذا الوقت، أقرّ الكونغرس الأميركيّ إعطاءَ شحنات أسلحة لإسرائيل. ومازال الموقفُ الرسميّ الأوروبيّ على غيبوبته حيال المجزرة. وتحاول إسرائيلُ فرضَ قرار مجلس الأمن بالقوة. ويتابع الرجلُ الأبيض تقاريرَ عن معاملة... الفيلة في تايلاند، وفي وقت فراغه يسأل ببلاهة: «لماذا يكرهوننا؟». وغزّة ما زالت تقاتل، ولا تنتظر قممًا عربيّةً تنتظر بدوْرها أنباءَ سقوط غزّة.

إنّهم لا يعرفون أنّ غزة لا تَسْقط، وإنْ دَخَلَها المحتلّ. فمَنْ يقاتل بلحمه لا يسقط. الساقطُ الساقطُ هو مَنْ دأب على ترك مدننا وقرانا تقاتل وحدَها!

بيروت

يسري الأمير

كاتب لبناني ومندوب الآداب في بيروت.